

الشيء الاستاذ

وَحَاجَتُنَا إِلَيْهِ

تأليف

الدكتور محمد بن لطفي لصبغ

المكتب الإسلامي

التَّشْعُّرُ الْإِسْلَامِيُّ
وَعَاجَتُنَا إِلَيْهِ





الشيخ الإسلام وَحَاجَتُنَا إِلَيْهِ

تأليف
الدكتور محمد بن لطفي لصبغ

المكتب الإسلامي



حقوق الطبع محفوظة.

الطبعة الثانية

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م







بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلِّ فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسَامِرُونَ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِءَ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

أما بعد،

فإنَّ هذه الرسالة تبحث في خصائص التشريع الإسلامي وميزاته وكيف كفل تحقيق حاجات العصر المتعددة السليمة



- ٦ -

المشروعة، وحاجة الإنسانية الحائرة القلقة المضطربة إليه.
وخاصة في ظل الظروف الراهنة .

و استجلاء نعمة الله السابعة بهذا الإسلام الذي منَّ اللهُ به
علينا، والذي جاء بكل ما يوفر للمرء من سعادة، بشكل لا نظير
له الإطلاق.

ونريد أن نتلمس هذه الحاجات التي تكون لكل عصر، وتلك
الحاجات التي تقتضيها طبيعة عصرنا هذا الذي نحن فيه.

نسأل الله أن يحفظ دينه وعباده المسلمين. وآخر عوانا أن
الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين.

محمد بن لطفي الصباغ

الرياض في ١٤ شعبان سنة ١٤٣٥هـ

الموفق: ١٢ حزيران ٢٠١٤م



التشريع الإسلامي

إذا كانت الفروق بين عصر وعصر في الماضي من الدقة والخفاء بحيث لا نقوى على التفريق بينها إلا بآمادٍ طويلة، فإننا في أيامنا هذه نرى عصرًا جديدًا كلّ الجدة، وتبدو الفروق التي لا يكاد يحصيها المرء، صارخة في المباينة بين عصر مضى وبين عصر أقبل. نجد ذلك ملموساً في الشرق والغرب، في البادية والحاضرة، لدى المثقفين ولدى العامة.

هذا أمرٌ مشهود لا يختلف عليه اثنان، وهناك أمرٌ آخر لا بد من الإشارة إليه والاعتراف به أيضاً، وهو: أنّ لكل عصر من الحاجات ما يتفرد به دون سواه من العصور، وهذه حقيقة بديهية. ونحن عندما نريد أن نتحدث عن التشريع الإسلامي وحاجات العصر، نريد أن نتلمس هذه الحاجات التي تكون لكل عصر، وتلك الحاجات التي تقتضيها طبيعة عصرنا هذا الذي نحن فيه.

وقد يكون من الخير أن نخص عصرنا هذا بكلمة نقوّمه فيها، ونرى إن كان قد حوى عناصر السلامة والسداد أو بعضها، أو كانت فيه نذرٌ خيفة مرعبة تهدد الصالحين والصلاح، والمستقيمين والاستقامة.



وبعد التأمل يبدو أنّ عصرنا هذا عصر استعلت فيه الرذيلة، وتنكر الناس فيه للمثل، وطغت على القلوب والأفكار المادة، وسادت الأثرة، حتى كادت تأتي على معظم ما تبقى للإنسانية المعذبة من فضائل.

وليس معنى هذا أن يستسلم أهل الحق للباطل، ولا أن يلقوا السلاح أمامه، ولا أن ييأسوا من إمكانية العمل والنجاح.

بل إنّ ذلك كلّه ليضع هذه الفئة المختارة أمام واجباتها، ويحملها مسؤولياتها كاملة، ويضاعف عليها العمل، ولقد حرص الإسلام العظيم على أن يبقى المسلم الكامل أداة رفع لمستوى أمّته والإنسانية، ودفع لهما إلى الأمام.

ومن أجل ذلك غرس في نفسه العزة، فهو العزيز ولو كان منهزماً في معركة، وهو القيم على شؤون الناس ولو كان في قلةٍ وضعف. ولتأمل قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

لتدبر هذا القول والمناسبة التي تنزل فيها، إنّ الآية نزلت في غزوة أُحُد، التي انهزم فيها المسلمون لمخالفتهم أمر رسول

الله ﷺ.



ولنقرأ بوعي الآية التي تجعل المسلم أستاذاً وشهيداً على الناس ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

إن هذين العاملين: (العزة بالإسلام).
و(الأستاذية بالنسبة للدنيا).

بمشابهة الإجراء الوقائي الذي يحول دون تردي الإنسانية في مهاوي الرذيلة والسقوط مهما كان واقع المسلمين. وسأحاول في هذه الرسالة أن أتحدث عن خصائص التشريع الإسلامي ومزياءه، لتبين أنه كفل تحقيق حاجات العصر المتعددة السليمة المشروعة، ولتبين حاجتنا الدائمة إليه، بل حاجة الإنسانية الحائرة القلقة المضطربة.

وأود أن أقرر أنه لا يمكن للمسلم أن يعلق تطبيقه للإسلام على احتياجه إليه .. لن يكون هذا أبداً من المسلم الصادق لأنه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

والذي نحاوله إنما هو استجلاء نعمة الله السابعة بهذا الإسلام الذي منَّ الله به علينا، والذي جاء بكل ما يوفر للمرء سعادته، بشكل لا نظير له في غيره على الإطلاق.



وتبيان أنه لم يستنفد أغراضه، وأن شريعته السمحة ما تزال - كما كانت - حية غضة، تفيض بالخير والسعادة والرشاد، وهي باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولعل من أعظم الأدلة على أن الإسلام دين من عند الله وليس لمحمد ﷺ فيه إلا التبليغ هذا الكمال الذي نلحظه في أحكام الإسلام التي استطاعت أن تتضمن الحلول لمشكلات الإنسانية.

إن وقوف الإسلام العظيم وحده من بين أفكار الدنيا، يعلن قدرته على تقديم المنهج الكامل للحياة، وليس سهلاً أن يكون هناك منهج كامل للحياة ذلك لأن معرفة الإنسان، هذا الكائن المعقد المركب، أمرٌ ليس باليسير .. إنه على تقدم العلوم ما يزال مجهولاً عند أساطين العلم التجريبي الذين قضوا أعمارهم كلّها في دراسة الإنسان والحياة من حول الإنسان.

يقرر الدكتور كاريل في كتابه "الإنسان ذلك المجهول" أن حقيقة علمنا عن الإنسان لا شيء. يقول: (بتعلمنا سرّ تركيب المادة وخواصها استطعنا الظفر بالسيادة تقريباً على كلّ شيء موجود على ظهر البسيطة فيما عدا أنفسنا .. فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا



جواب لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة).

إذن فماذا يستطيع الإنسان العاجز عن فهم نفسه أن يقدم لأمثاله من الناس من العلاج والحلول والتنظيمات؟ الحق أنه عاجز عن ذلك عجزاً أكيداً.

ومن هنا كان الإسلام وحده هو القادر على القيام بهذه المهمة؛ ذلك لأنّ منزله هو الله سبحانه، وهو الذي خلق الإنسان وركبه ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

وقد استطاع الإسلام أن يقدم الدليل على صلاحيته وقدرته عندما أتيح له أن يطبق في دنيا الواقع فكانت حقبة تطبيقه حقبة فاضلة، توفرت فيها العدالة الاجتماعية، والكرامة الإنسانية، وارتفعت فيها المثل العليا منارة تضيء لأجيال الإنسانية المقبلة سلم الخير والمجد والخلود.

لقد نعم الناس بالحياة السعيدة، وتفرغوا لحمل رسالة تحرير العالم كله من أغلال الظلم، وكابوس الجهل، وظلمات الضلالة، فكانت الأمة التي حملت هذه الشريعة خير أمة



أخرجت للناس، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله،
وتحرر المظلومين مستجيبة لنداء العزيز الحكيم:

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ
وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا
مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥].

إنَّ واقع الأمم الأخرى التي تعمل بأنظمة مغايرة لهذا
الدين ليشهد لهذه الشريعة بالسمو والكمال، إذ تضطر هذه
الأمم أن تتنازل عن بعض ما في تشريعها ونظامها، وأن تستعير
من الإسلام أموراً عديدة.

فمثلاً: الطلاق الذي تحرّمه النصرانية اضطرت البلاد التي
تدين بها أن تشرع الطلاق، كما حدث ذلك في عدد من البلاد
الأوربية والأمريكية، وقد نشرت الصحف من نحو ثلاث سنوات
أنّ مظاهرة ضخمة قامت في إيطاليا تطالب الحكومة بجعل
الطلاق قانونياً، وكان شعارها: (إنّ الحيوانات هي التي لا تملك
حق الطلاق، ولكن الإنسان المتحضر يملك هذا الحق) وقال
منظمو هذه المظاهرة: إنّ هناك أكثر من خمسة ملايين زواج إيطالي



غير شرعي، لأن الزوجين لا يستطيعان إعلان زواجهما على الملأ نظراً لعدم إقرار قانون للطلاق.^(١)

مثل آخر:

الشيوعية التي تقوم على أساس إنكار الملكية الفردية تتراجع في روسيا، حيث بدأت بتوسيع حدود الملكية الزراعية والحيوانية الخاصة منذ أربع سنوات، ثم ألغيت هذه الحدود بين جمهوريتي أوكرانيا وإستونية، كما أعلنت ذلك وكالة تاس السوفياتية في ٠٦ تشرين الثاني سنة ١٩٦٤م، ويقول ألكسي كوسيجن: إنَّ السبب الوحيد لتدهور الإنتاج الزراعي يعود إلى فقدان المصلحة الخاصة بالفلاح، بدليل أنَّ الملكية الخاصة للأراضي في الاتحاد السوفيتي هي ٣٪ من مجموع الأراضي، غير أنَّ هذه ٣٪ في انتاجها الزراعي من البطاطا قدمت أكثر من ٥٠٪ من إنتاج البطاطا في الاتحاد كله.

إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي نراها في حياة المجتمعات المخالفة للإسلام.

(١) جريدة الندوة السعودية العدد ٢٣٧٣ الصادر في ٠٢ شعبان ١٣٨٦هـ.



يراد بالتشريع الإسلامي الأحكام. ولكننا لا نستطيع أن نغفل المعين الذي يفيض منه، ولا الأصل الذي يعتمد عليه .. إنه ينبع من العقيدة، وينبثق عنها، ويعطي الأحكام صفة أخلاقية كما ينمي الأخلاق.

إن الإسلام يشمل الأمور الثلاثة الآتية:

- ١- العقائد التي تعطي فكرة عن الإله وعن عالم الغيب، وكذلك فإن هذه العقائد تعطي المؤمنين بها تصوراً خاصاً عن الكون، وعن الإنسان.
- ٢- الأحكام التي تنظم الحياة على شتى وجوهها، من شؤون العبادة وأوضاع الاقتصاد والسياسة، والمعاملات، والأحوال الشخصية، والعلاقات الدولية .. وما إلى ذلك.
- ٣- الأخلاق التي تعمل على تهذيب الفرد وتقويم المجتمع .. وسنعرض لكل هذه الأمور بغاية الإيجاز.



العقائد

على حين فترة من الرسل، وفي غمرة من تردّي الإنسانية في مهاوي الشرك والخرافة والرذيلة والانحراف^(١) ابتعث الله عبده محمداً ص فصدع بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) واستطاع أن يرتقي بالإنسان في مجال العقيدة إلى مستوى رفيع حيث حرّره من كلّ عبودية لغير الله .. وذلك لعمري هو التحرير الذي يرد للإنسان كرامته وشعوره بكيانه، وأبطل الوساطة بين الناس وخالقهم، بل إنَّ في إمكان أي فرد أن يتصل بالله سبحانه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا ۗ فَلَيْسَ جَبِوًا لِي وَلَئِن مَّنُوا مِنِّي لَأَعْلَهُم يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وحتّ أتباعه على أن يصلوا إلى عقيدتهم عن طريق استخدام العقل وإعماله في ملكوت الله، والانتفاع بالحواس لمعرفة الله سبحانه ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

(١) "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" لأبي الحسن الندوي ٢٧ - ١٣٧ الطبعة السادسة.



يَعْقُلُونَ ﴿ [البقرة: ١٦٤]. ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴿ [الأنبياء: ٢٢].

والإيمان بالغيب جزء هام من عقيدة الإسلام. ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴿ [البقرة: ٢-٣]، ومن الغيب الذي يجب على المؤمن الإيمان به: الملائكة، والوحي، واليوم الآخر ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿ [النساء: ١٣٦].

ودعوة رُسُلِ الله في أصولها العامة واحدة: ﴿ * شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَن يَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿ [الشورى: ١٣].

أمَّا بالنسبة إلى الإيمان باليوم الآخر فإن فيه عزاء للمؤمن أي عزاء، ذلك أن العالم الذي نعيش فيه يتناحر فيه الخير والشر. وليس الخير هو المنتصر دائماً في هذه الدنيا، فإذا هُزِمَ الأخيار يوماً فإنَّ اليوم الآخر سيكون كله لهم^(١) .. إنه يجعلهم يقدمون على أسباب الموت مخاطرهم بأنفسهم؛ لأنهم يعلمون أن الاستشهاد في سبيل الحق سبب إلى السعادة بالجنة.

(١) "الإسلام اليوم وغداً" مقال أبي زهرة ص ٢٠٤.



وهذا ما كان مع عمير بن الحمام عندما سمع رسول الله ﷺ
يحرّض الجيش على القتال قائلاً:

«والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليومَ رجلٌ فيُقتل صابراً محتسباً
مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة».

فما أن سمع عمير هذا القول، وكان بيده تمرات يأكلها، حتى قال:
بخٍ بخٍ ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف
التمرّات من يده وأخذ سيفه وقاتل حتى قُتل. (١)

إنه ما كاد يتمثل الجنة ونعيمها، حتى بدت له الدنيا على
حقيقتها تافهة ضئيلة، لا تعدل أن يبقى الإنسان فيها مدة أكل
التمرّات .. ولذلك لم ينتظر أن يتم أكلهن، وألقاهنّ من يده، وقفز
نحو الجمع، طائراً كالسهم يروم الجنة، ويبلي البلاء الحسن، حتى
صعدت روحه الطاهرة إلى ربها راضية مرضية، تتقلب في أفياء
الجنة، مع الشهداء والصديقين والنبين وحسن أولئك رفيقاً.

وهكذا مضت هذه الشريعة تقرر جوانب العقيدة بكل وضوح
وإقناع، وبكل عمق وإمتاع .. وتقدم للإنسان نظرة راقية إيجابية
عن الكون والحياة والإنسان. ولا أستطيع أن أعرض لذلك
بالتفصيل، ولكن الذي لا بُدّ منه في هذا المجال أن أسير إلى ناحية

(١) انظر القصة في كتب السيرة، وهي في "نور اليقين" ص ١١٥.



هامة هي أنّ أحكام الشريعة والأخلاق التي جاءت بها إنما تنبثق عن هذه العقيدة انبثاقاً.

إنّ الإسلام يقيم بناءه الاعتقادي في الضمير والواقع على أساس العبودية الكاملة لله وحده، ويجعل هذه العبودية متمثلة في العبادة والعقيدة وأحكام الشريعة الأخرى على السواء.

قد يقول قائل: إذا أردنا المحافظة على سلامة تكويننا الفطري بإعطاء كل من المادة والروح منا نصيبه وافيّاً، فليس من الضروري أن نأخذ التشريع الإسلامي لنطبقه جميعه، بل يكفينا أن نطبق منه ما يتعلق بشؤون العبادة والأحوال الشخصية، ونأخذ بحل المشكلات الغيبية التي جاء بها، ثم بعد ذلك نأخذ ما لدى الغربيين من تشريعات وأنظمة.

والجواب على هذا: أنّ مثل هذا التصرف غير ممكن أصلاً؛ ذلك لأنّ هناك ارتباطاً وثيقاً بين طبيعة ذلك النظام الاجتماعي وطبيعة التصور الاعتقادي، بل هناك الانبثاق الحيوي: انبثاق النظام الاجتماعي من التصور الاعتقادي، كما أشرنا إلى ذلك، والدين نفسه ياباه، وقد أدرك هذا المعنى أعظم إدراك الخليفة الأول الذي رفض أن يتساهل مع قوم رضوا أن يعملوا بالإسلام كلّهم على أن يعطوا الزكاة .. وسأهم مرتدين وحاربهم، وأعلن



أنه سيستمر في قتالهم إلى أن يعودوا كما كانوا (والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم ما استمسك السيف بيدي) وكل مجتمع يخلط في الاحتكام إلى تشريعين: في العبادة والاعتقاد يحتكم إلى دين الله، وفي شؤونه الحيوية يفرع إلى الجاهلية، كل مجتمع يفعل ذلك يهدم ذاته ويسيء إلى كيانه، ويجعل أفراده في شقاء وتعاسة، بسبب فقدان التناسق بين جانبي الحياة هذين، لأن الإسلام نظام اجتماعي متكامل، تترابط جوانبه وتتساند، وهو نظام يختلف في طبيعته عن النظم الغربية،^(١) إنَّ النظام الغربي القائم على أساس المادة إنما ينطلق في تشريعاته الاجتماعية من تصور الإنسان على أنه معدة وضرورة حيوانية وينسى هذا النظام أن المعدة جزء منه، وليست كل شيء فيه .. فهناك قلبه .. وهناك روحه .. وهناك فكره .. وهناك أشواقه .

وإنه من جهة أخرى تشويه لهذا الدين الذي يشكل كائناً حياً، فيه مقومات الجمال والتناسق والانسجام ..

فنتيجة هذا الخلط قيام ذات عجيبة، رأسها من جنس ويداها من جنس .. وقد تأتي العين في غير موضعها الطبيعي، واليد في

(١) انظر مقالة (خذوا الإسلام جملة أو دعوه) للشهيد الأستاذ سيد قطب في كتابه "دراسات إسلامية" صفحة ٨١.



غير موضعها .. وهكذا مما يجعل منظر هذا الكائن في غاية التشويه والبشاعة والقبح.

ولحكمة بالغة كان تحذير الله سبحانه لنبية محمد ﷺ ﴿وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَقْنَتُواكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩] بل أشارت الآيات القرآنية إلى أن ذلك من صفات الكفار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

وأنكر على قوم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض وتوعدهم فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُوقَعُ الْقَيْمَةُ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].



الأخلاق

أما في مجال الإرشادات الخلقية فقد بلغ الإسلام في ذلك الذروة، واستطاع أن يقيم جيلاً مثالياً، يبني حياته على أسس من مكارم الأخلاق في دنيا الواقع، ونستطيع أن نصف الأخلاق الإسلامية بأنها: شاملة، وعملية، وإيجابية.

فمن هذه التوجيهات الأخلاقية السامية ما يتعلق بالفرد ذاته، كالصدق والعفة والصبر والورع .. وما إلى ذلك .. والفرد هو اللبنة التي يتكوّن منها المجتمع، فمتى صلح الأفراد صلح المجتمع.

ومنها ما يتعلق بالفرد مع علاقته بالآخرين، كبرّ الوالدين، والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم، والتعاون على البر والتقوى، والمرحمة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواضع والحلم والعفو والحب في الله .. وحسن معاملة الزوجة والأولاد .. وما إلى ذلك ..

والأخلاق التي دعا الإسلام إلى التحلي بها والصدور عنها هي في مقدور البشر، وليست فوق طاقتهم. وليست الأخلاق الفاضلة قيوداً تحدّ من الطاقة الإنسانية .. بل إنّ الإسلام ليعتبر أنّ الرذائل قيود وأغلال تقعد بالإنسان عن الصعود إلى مرتبة الإنسان المرتفعة عن المخلوقات الأخرى؛ ولذلك فإنّ التزام هذه



الأخلاق يحرر المسلم من هذه القيود، ويرتفع به إلى مستوى راق من حياة الطهر والسمو والخير، ولنضرب على ذلك مثلاً:
 إنَّ الإسلام عندما يضبط تصرفات المرء عن الاندفاع مع الشهوات الجنسية، إنما يحرره من العبودية لهذه الشهوات، ويطلقه من عقابها، ويجعل إرادته الإنسانية تستعلي حيث يمارس هذه الوظيفة الحيوية في دائرة الطيبات التي أحلها الله والتي تؤدي مهمة اجتماعية هامة.^(١)

ووسائله في التهذيب والتربية كثيرة، منها: العبادات العديدة، ومنها تنمية الوجدان بحيث يراقب المسلم نفسه حتى لا تميل مع الهوى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ فَيَنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

ومنها تحميل المسؤولية ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلِيمٍ لَّعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقد بلغت عناية الإسلام بالأخلاق درجة تجعل الرسول ﷺ يحرص غاية بعثته لإقامة الخلق الكريم.
 «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».^(٢)

(١) "هذا الدين" ص ٢٩-٣٢.

(٢) رواه أبو هريرة وأخرجه البخاري في "الأدب المفرد" (٢٧٣)، والبيهقي في "شعب الإيمان" ٣٥٢/١٠، وفي "الكبرى" ١٩١/١٠.



الأحكام

أما في مجال الأحكام الفقهية والقانونية، فلقد حفلت هذه الشريعة بزاد كبير من الأحكام، فيه من الخصائص العظيمة الشيء الكثير.. مما سنورد بعضها بعد قليل.

وفي هذه الأحكام من القوة والأصالة والوفرة والصلاحية ما يغني عن غيرها في أي زمان ومكان. وليس من شك أبداً في أنّ صلاحيتها ووفاءها بكل حاجات الإنسان على مرّ العصور دليل على أنها من عند الله كما سبق أن أشرنا إلى ذلك.^(١)

وأود أن أورد شيئاً من شهادات كبار رجال القانون في العالم بهذا الجانب من التشريع الإسلامي العظيم:

ففي سنة ١٩٣٨م سجل المؤتمر القانوني المنعقد في لاهاي القرار الآتي:

- ١- اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام.
- ٢- وأنها حية قابلة للتطور.
- ٣- وأنها شرع قائم بذاته ليس مأخوذاً من غيره.^(٢)

(١) انظر ص ١٠ من هذه الرسالة.

(٢) "تاريخ التشريع" للسايس السبكي والبربري ص ٣٥٣.



وفي سنة ١٩٣٨م عقد مؤتمر المحامين الدولي في لاهاي أيضاً وقد اشتركت فيه ٥٣ دولة واتخذ القرار الآتي:

(نظراً لما في التشريع الإسلامي من مرونة ولما له من شأن هام يجب على جمعية المحامين الدولية أن تتبنى الدراسة المقارنة لهذا التشريع العظيم وتشجع عليها).^(١)

وفي تموز سنة ١٩٥١م عقد مؤتمر حقوقي في باريس للبحث في الفقه الإسلامي وقرر ما يأتي:

(إنَّ لمبادئ الفقه الإسلامي قيمة تشريعية لا يمارى فيها، وإنَّ الفقه الإسلامي بمذاهبه يستطيع أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة).^(٢)

(١) "المدخل الفقهي" للزرقا ص ٢١٠.

(٢) "المدخل الفقهي" للزرقا ص ٩ الطبعة السابعة.



أهداف الشريعة وارتباط الأحكام بها

ومن أجل ذلك كانت أحكام هذه الشريعة مرتبطة بهدف سام تروم تحقيقه. ويستطيع المرء أن يجد في كل حكم من أحكام هذه الشريعة ارتباطه بالهدف العام الذي جاءت الشريعة لتحقيقه.

أما الأهداف التي تسعى الشريعة لتحقيقها فعديدة نذكر أهمها فيما يأتي:

١- تحقيق معنى العبودية لله سبحانه، والتحرر من سلطان المادة والبشر والشهوة.

٢- تحقيق الضروريات الخمس التي قصدت الشريعة إلى المحافظة عليها وهي: حفظ الدين، والعقل، والنسل، والنفس، والمال.

٣- تحقيق البر والخير والمصلحة ضمن حدود الله.

٤- المحبة بين أبناء الملة والتعاون بينهم على التقوى.

٥- تهذيب الخلق وصقل النفس.

٦- تحقيق الشعور بالمسؤولية بين يدي الله والخوف منه وحده.



خصائص التشريع الإسلامي

خصائص التشريع الإسلامي عديدة وسنذكر أهمها فيما يأتي:

١ - شريعة ربانية:

إنها شريعة السماء الصادقة لأهل الأرض، تنزل بها الوحي الأمين على قلب محمد ﷺ فكانت هداية الله، لتحكم الدنيا وتقود الناس إلى الخير والفلاح.

ومصدر هذه الشريعة الأساسي هو الوحي لا تجاوزه، وكل المصادر الأخرى ترجع في النهاية إليه. ويعتبر الإسلام قبول التشريع من أحد، واتباعه عبادةً لوأضعه.

دخل عدي بن حاتم على رسول الله ﷺ بينما كان يقرأ هذه الآية: ﴿ اتَّخَذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرُحْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١].

قال عدي: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: «بلى، إنهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم»^(١).

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥)، والبيهقي في الكبرى ١٠/١١٦، وابن كثير في التفسير.



إنَّ انتزاع حق التشريع من البشر ، ورده إلى الله وحده سبحانه، لم يبق لواحد من البشر أو لجماعة أو لطبقة أي مجال للتحكم في الآخرين، ولا أي منفذ يعلو به فرد على فرد، أو فرد على جماعة، أو طبقة على طبقة .. أي لن يكون في هذا التشريع محاباة لفرد أو جماعة أو طبقة .. ولن يُجسَّ أحدٌ أنه حين ينفذ القانون خاضع لمشئته أحد .. إنما هو خاضع لرب العالمين، ولذلك فإنَّ المسلمين يقبلون على تطبيقه باقتناع داخلي ورضى نفسي، يؤدّون الحقوق التي يوجبها، ولو كانوا بمنأى عن متناول القضاء وعين الشرطي، لأنها أحكام الله السميع البصير العليم الخبير الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة من خردل، يحيط علمه بالأوضاع الخفية والأحوال الدقيقة. ﴿ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ حَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦].

ومن أجل ذلك فإنَّ للتشريع الإسلامي من المهابة والاحترام لدى المؤمنين به ما لا يمكن أن تصل إليه القوانين الوضعية. أما من يقوم على تنفيذ التشريع فإنه لا يُشرَّع بل ينفذ، والطاعة المفروضة له ليست طاعة لشخصه .. إنما هي طاعة لشيعة الله،



ولا حق له في الطاعة حين يتعداها، وهذا ما قاله أبو بكر رضي الله عنه:
(أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم).

ولقد حرص التشريع الإسلامي على تأصيل الربانية، وتثبيته في نفوس أتباعه، يدل على ذلك ما نراه في آيات القرآن من مزج التوجيه والإرشاد بالأحكام، والتعقيب بالتحذير والتهديد كقوله تعالى بعد إيراد بعض الأحكام المتعلقة بالأسرة: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ففي هذا التعقيب تبيان للحق، ونهي عن مجاوزته، ثم تهديد لمن يتجاوزها، ونعته بالظلم.

وفي تحريم زواج المسلم من المشركة، وتحريم تزويج المشرك المسلمة يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَتْ وَلَأُمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وهكذا نرى بعد تقرير الحكم إشارة إلى حقيقة قد تغيب عن بال كثير من الناس، فالأمة المؤمنة خير من المشركة حتى ولو



حازت الإعجاب. وكذلك شأن العبد المؤمن بالنسبة إلى المشرك، ثم تعليل لهذه الحقيقة بأن هؤلاء يدعون إلى النار. والله يدعو إلى الجنة والمغفرة .. ثم نرى في هذه الآية تحريضاً على التذكير ﴿وَيَبِّئْ عَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وفي الرضاعة يقول تعالى آمراً بالتقوى ومذكراً بأن الله بصير بما يعمل عباده، وذلك بعد تقرير حكم الرضاعة: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْمَلُوا أَنْ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وفي عدة المتوفى عنها زوجها يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

وأخيراً فإنّ مما يتصل بربانية هذه الشريعة أنها مستقلة عن الشرائع القديمة والحديثة، تلقاها رسول الله ﷺ عن ربه، وحملها المؤمنون إلى الدنيا، ونال العرب بذلك شرفاً عظيماً حيث اختارهم سبحانه أهلاً لهذه الشريعة وحملة لها، ولقد تكلم عن استقلال هذه الشريعة، ولا سيما عن الشريعة الرومانية، عدد كبير من العلماء



المسلمين وغيرهم، بما لا يدع مجالاً للشك في هذا الاستقلال.^(١)

٢- شريعة مرنة:

لما كان الإسلام دين الله الخالد الذي سيظل قائماً إلى أن يرث الله ومن عليها كان من رحمة الله بالمسلمين أن ترك لهم عدداً من الأمور ليصرفوا شؤونهم وفق مصلحتهم بما لا يتعارض والإطار العام للشريعة.

ويدل على ذلك الحديث: «دعوني ما تركتكم. إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهينكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم».^(٢) متفق عليه.

لقد سكت الشارع الحكيم عن أشياء رحمة بنا، فهى النبي ﷺ الصحابة أن يسألوا عنها، لأنها مما يمكن أن تتغير فيها الآراء.

إنَّ سكوت المشرع عن بعض الأمور لم يكن ناتجاً عن سهو، تعالى الله عن ذلك ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] ..

(١) انظر في هذا الموضوع ما كتبه حلمي المحمصاني وفايز الخوري.

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).



بل كان مقصوداً ليوفر حصانة ضرورية ضدّ الجمود القانوني والاجتماعي.

ولذا فإنّ الأحوال التي تتغير تبعاً للظروف والأوضاع الاجتماعية لم يقصد التشريع الإسلامي أن يضع لها أحكاماً صارمة لا تتبدل أبد الدهر .. إنّ في ذلك إعناتاً للناس والله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر.

إنّ الشارع الحكيم رسم الإطار العام لهذه الشريعة، والحدود الأخلاقية التي ينبغي أن يتطور المجتمع في نطاقها، تاركاً للأجيال المتأخرة حرية اتخاذ القرارات المناسبة، حيال العدد الضخم من المواقف القانونية المحتملة، على أن يجري اتخاذ تلك القرارات في ضوء تعليمات الشرع، وضمن الحدود التي رسمها والروح التي قررها.^(١)

وهناك ملاحظة هامة ينبغي أن ننبه إليها وهي: أنّ المرونة التي نتحدث عنها يجب أن تبقى يجب أن تبقى في حدود اختيار الأنسب للمصلحة، مما سكتت عنه الشريعة كما ذكرنا. أما أن تكون المرونة سبيلاً إلى نسف الشريعة والقضاء عليها، فهذا ما ياباه كل مسلم غيور وكل مسلم صادق، ومن المؤسف أن نكون معاول الهدم

(١) "الإسلام والسياسة" لمحمد أسد ص ١٣-١٤.



الباغية على الإسلام قد تدرعت بهذه الخاصية العظيمة، والمعجزة الكبيرة وهي توجه ضرباتها للشريعة، ويأبى الله إلا أن تبقى كلمته عالية يدافع عنها المؤمنون المجاهدون.

ومما يدل على كون المرونة خاصة من خصائص التشريع ما للعرف من مكانة في الفقه الإسلامي حتى كانت من ذلك القاعدة الشرعية الهامة:

لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان.

لقد ورد في القرآن نصٌ يأمر بالشورى السياسية دون تعيين شكل خاص لها، فكانت شاملة لكل نظام حكومي يجتنب فيه الاستبداد، ويتحقق فيه تشاور واحترام صحيح لرأي أولي الرأي.

٣- شريعة شاملة:

إنَّ الإسلام دينٌ كامل، ونظام شامل، أحاط بجوانب الحياة كلّها ورعاها جميعاً بأحكامه.

فقد نظم التشريع الإسلامي تصرفات الفرد في خاصة نفسه، وفي صلته بأسرته، وفي علاقاته العديدة المختلفة بالمجتمع الذي يعيش فيه، من عقود ومعاملات، ونظم علاقات الدولة الإسلامية بالدول الأخرى، ووضع لكلّ تصرف حكماً من الأحكام، وهذه



الأحكام بعضه بيته نصوص وردت في القرآن والسنة، وبعضها لم تبينه نصوص فيهما، ولكن أقامت الشريعة دلائل عليها، ونصبت إمارات لها، بحيث يستطيع المجتهد بواسطة تلك الدلائل والإمارات أن يصل إليها ويبينها.

إنها شريعة كاملة يصدق فيها وصف الله إياها بالكمال ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

٤ - شريعة جمعت الدقة والاحكام:

إن نظرة متفحصة لمضمون شريعة الإسلام، تفضي بنا إلى أن نقرر أن هناك إحكاماً رائعاً ينتظم جوانبها وجزئياتها ووكلياتها.

إذن لم يصادم الإسلام الفطرة الإنسانية، ولم يقرّ مبدأ العزوف عن الزواج، كما أنه لم يبيح مقدمات الزنا وأسبابه من الغناء الفاجر، والتبرج الماجن، كما تفعل القوانين الوضعية الآن.

ولنعرض موقفاً آخر من مواقف هذا التشريع تبدو فيه هذه الخاصة واضحة بيّنة، وهو الطلاق:

لقد حرص الإسلام على أن تستمر العلاقة بين الزوجين فحرم الزواج المؤقت (المتعّة) ونفر من الطلاق، ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا



شَيْئًا وَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿ [النساء: ١٩]، ورغب في الصلح إن قامت بين الزوجين مشكلات وخلافات .. ولكن ذلك لم يحمّله على أن يرضى بأن تكون الحياة الزوجية جحيماً يصلى نارها كلّ من الزوجين والأولاد أيضاً .. بل شرع الطلاق حلاًّ حاسماً لهذا الخلاف، يقدم عليه الزوج بعد طول تفكير، إذ أنّ الطلاق الموافق للسنة ينبغي أن يقع والزوجة في طهر لم يقربها زوجها خلاله، ومن العلماء من قال: إنه لا يقع في غير ذلك.

ثمّ هو بعد الطلاق ترك مجالاً لاستعادة الحياة الزوجية واستئنافها، بعد أن يذوق كل من الزوجين لوعة الفراق، ويفكر كل منهما بهدوء واتزان في مصلحته بشكل أعمق، ويندم - إن كان مخطئاً ومتسرعاً - على ما فرط في جنب مصلحته، وعلى إساءته لنفسه .. فشرع له مراجعتها. وإذا تكررت هذه التجربة مرّتين ولم يستطع الزوجان الوصول إلى حياة هادئة سعيدة، كان ذلك دليلاً على استحالة الحياة المشتركة .. ولذا فإنّ الطلاق الثالث يجرّمها عليه إلّا في حالات قليلة عندما يتاح لهذه المرأة أن تتزوج من رجل آخر .. ثمّ يقع الفراق بينهما. قال تعالى: ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٩].



وقد أشرنا قبل قليل إلى اتجاه الآخرين من غير المسلمين إلى الأخذ بالطلاق. وهكذا نرى كيف أنّ الدقة في هذا التشريع تحرص على تحقيق الهدف المنشود دون أن يؤدي ذلك إلى التفريط في حق هدف آخر.

وهذا ما لا تستطيع القوانين الوضعية أن تصل إليه: ذلكم لأنّ القوانين إنما تملئها في كثير من الأحيان ردود الفعل، التي تستجيب لحاجة عاجلة ولا تستطيع أن تتوقع كل ما يمكن أن يجد.

فالقوانين التي أنتجتها الثورة الفرنسية كلّها مستوحاة من مبدأ استنقاذ حقوق الأفراد الضائعة بين أيدي الكهنة والاقطاعيين، ولكنها لم تستطع أن تصل إلى الأحكام .. إذ جارت على حقوق المجتمع وفرطت في ذلك أيما تفريط .. وهكذا كل القوانين الوضعية.

٥- شريعة متوازنة:

شريعة الإسلام هي شريعة الحياة، استطاعت أن تتجنب في عقيدتها وأحكامها التطرف المقيت.

وإنّ التطرف هو آفة الحضارة الإنسانية الذي ابتليت به منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر، وما انتكست أمورها



وارتكست في مهاو سحيفة من الآلام والمشكلات إلا لأنها لم تعرف التوسط والموازنة بين كافة عوامل الحياة وأركانها.

إنَّ النصرانية المكتسبة التي تجاهلت واقع الحياة، وأهملت شؤون المادة، وقاومت فطرة الإنسان، وعنيت بالروح؛ لم تستطع أن تفلح في حل مشكلات الإنسان، ولا أن تكون دين الحياة.. وكان من ذلك التمرد عليها في العصور الحديثة.

والحركة الاشتراكية التي تكفر بالروح وتنكر وجود الله وتقيم حياتها على أساس مادي بحت، أخفقت في محاولة الإصلاح. وقد أشرنا إلى شيء من ذلك.

أما التشريع الإسلامي فقد استطاع أن يقيم كيان الحياة على مبدأ وسط بشكل متوازن.

- يراعي جانب الدنيا كما يراعي جانب الآخرة.
﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

- ويقيم توازناً بين ضرورات المرء وأشواقه وأمانيه.
- ويقيم توازناً بين الرجل والمرأة، بحيث لا يجور الرجل على المرأة، ويمنعها حقوقها، ويلغي شخصيتها، ولا يترك للمرأة



أن تنطق، وأن تحيا كما تزين لها أهواؤها، وكما يريد لها كثير من المنحليين إرضاء لشهواتهم.

- وقيم توازناً بين الفرد والمجتمع بشكل لا يفرط في حق واحد من الطرفين.

٦- شريعة عادلة:

العدالة خاصة ميزت هذه الشريعة حتى أصبحت أبرز صفاتها، وأشهر مزاياها .. عدالة إلهية مطلقة، تجدها مجسدة حية متحركة في أحكام الشريعة، شأنها في العبادات كشأنها في المعاملات.

عدالة في الأحكام:

ففي الصلاة يقف الناس^(١) جميعاً بين يدي الله، لا يخصص مكان لعظيم أو عالم .. وفي الصوم يجوع الناس جوعاً واحداً، لا يقرد من بينهم أمير أو غني أو شريف، وفي الحج يلبس الناس لباساً واحداً، ويقفون موقفاً واحداً، ويؤدون منسكاً واحداً، لا تمييز بين قاصٍ ودان .. وقوي وضعيف .. وأشرف وعامة .. ومن قَتَلَ قَتِيل، ومن سَرَقَ قُطِع، لا فرق بين أن

(١) "من روائع حضارتنا" صفحة ٥٣.



يكون القاتل عالماً أو جاهلاً، والمقتول أميراً أو صعلوكاً .. فالكلّ
سواء.

عن عائشة رضي الله عنها أن قريشاً أهمّهم شأن المرأة المخزومية^(١)
التي سرقت فقالوا: من يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: من يجترئ
عليه إلا أسامة بن زيد حبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ .. فكلمه أسامة.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتشفع في حدّ من حدود الله تعالى؟» ثمّ
قام فاخطب ثمّ قال: «إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق
فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ!
وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». ^(٢)

وهكذا يقرّر التشريع الإسلامي العظيم مبدأ العدالة، ولو
كان المحكوم عليه قريباً ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾
[الأنعام: ١٥٢].

ولم يبقَ مبدأ العدالة في القضاء أمراً نظرياً، بل لقد حفلت
كتب التاريخ الإسلامي بالأمثلة والنماذج الرائعة، وأكتفي بإيراد

(١) هي فاطمة بنت أبي الأسد.

(٢) متفق عليه رواه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).



هذا النموذج - ومثله كثير؛ كقصة علي واليهودي مع عمر وغيرها -:

أتت امرأة يوماً شريك بن عبد الله قاضي الكوفة تشكو إليه الأمير موسى بن عيسى ابن عم الخليفة العباسي المهدي، إذ أدخل أرضها في أرضه قسراً، بعد أن ساومها ورغبها في البيع ولكنها لم تبع، فأرسل يدعوه إلى مجلس القضاء، فطلب الأمير من مدير الشرطة أن يذهب إليه ويعاتبه، قال صاحب الشرطة: إن رأى الأمير أن يعفيني من ذلك. فقال: امضِ ويحك. فخرج وقال لغلمايه: اذهبوا أدخلوا إلى حبس القاضي بساطاً و فراشاً وما تدعو الحاجة إليه. ثم مضى إلى شريك فلما أدى الرسالة أمر به إلى الحبس.

وبلغ موسى بن عيسى الخبر، فوجه الحاجب إليه وقال: رسولٌ أذى رسالة أيّ شيء عليه؟ فقال شريك: اذهبوا به إلى رفيقه إلى الحبس. عند ذلك بعث الأمير إلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء شريك، ليكلموه في هذه القضية، فأمر بهم إلى الحبس جميعاً قائلاً: حتى لا تعودوا برسالة ظالم.

فركب الأمير موسى في الليل إلى السجن، وفتح الباب بالقوة، وأخرجهم كلهم، فلما كان الغد وجلس شريك للقضاء، جاءه



السجان، فأخبره، فجمع أوراقه ودعا بالقمطر^(١) فختمه، ووجه به إلى منزله، وقال لغلامه: الحق بثقلي إلى بغداد .. والله ما طلبنا هذا الأمر منهم .. ولكن أكرهونا عليه، ولقد ضمنوا لنا فيه الإعزاز إذ تقلدناه لهم.

وبلغ الخبر إلى موسى بن عيسى، فركب ولحقه، وجعل يناشده الله أن يرجع، ويعاتبه في حبس إخوانه، قال: نعم لأنهم مشوا لك في أمر لم يجز لهم المشي فيه، ولست ببارح أو يردوا جميعاً إلى الحبس، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدي فاستعفيته مما قلدني.

فأمر موسى بردهم جميعاً إلى الحبس، وجلس الأمير مجلس القضاء، وعند ذلك أمر القاضي بإطلاق سراحهم، وحكم على الأمير بعد التقاضي قائلاً: ترد ما أخذت منها وتبني حائطاً سريعاً كما كان.

قال الأمير: أفعل ذلك. قال لها: أبقى لك عليه دعوى؟

قالت: لا، وبارك الله عليك وجزاك خيراً.^(٢)

ولقد دعا القرآن إلى العدل حتى مع الأعداء ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ

(١) القمطر: (بوزن الهزبر) ما يسان فيه الكتب.

(٢) من "أخلاق العلماء" صفحة ١١٤ - ١١٦ نقلاً عن "العقد الفريد".



شَتَانُ قَوْمٍ عَلَيَّ إِلَّا تَعَدَلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴿٨﴾
[المائدة: ٨]. إنه العدل المطلق، الذي لا يُميل ميزانه الحب أو
العداوة، ولا تغيّر قواعده المودة أو البغض .. العدل الذي لا يتأثر
بالقربة بين الأفراد، ولا بالتباغض بين الأقوام، فيتمتع به الأقوام
الأخرى ولو كان بينها وبين المسلمين شتآن .. وتلك قمة في
العدل لم يبلغها أي قانون دولي إلى هذه اللحظة، ولا أي قانون
داخلي كذلك.

والذين يمارون في هذا، عليهم أن يراجعوا عدالة الأقوياء
للضعفاء بين الأمم .. وعدالة البيض للحممر والسود في الولايات
المتحدة وجنوب افريقية.^(١)

عدالة في الأسرة:

أمر بالعدل بين الزوجات، كما أمر بالعدل بين الأولاد أيضاً،
فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: تصدق عليّ أبي ببعض ماله.
فقالت أُمِّي عَمْرَةَ بنت رواحة: لا أرضى حتى تُشهد رسول الله
صلى الله عليه وسلم، فانطلق أبي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشهد عليّ صدقتي. فقال له
رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفعلت هذا بولدك كلهم؟». قال: لا. قال:

(١) "محطم الطواغيت" ص ١٢، و"العدالة الاجتماعية" ص ٩٥.



«فلا تشهدني إذن، فإنني لا أشهد على جور، اتقوا الله واعدلوا في أولادكم». فرجع أبي فرد تلك الصدقة.^(١)

عدالة اجتماعية:

كما استطاعت شريعة الإسلام أن تقيم عدالة اجتماعية استفاضت الدراسات عنها واشتهرت، فقد أتاح إمكانات العمل بفرص متكافئة أمام القوى العاملة، وعالج الفقر علاجاً يستأصله من المجتمع في نظام دقيق محكم.^(٢)

٧- شريعة واقعية ومثالية:

هاتان صفتان لم تجتمعا في شريعة من قبل، ولن تكونا في فكرة أو نظام من بعد.

فالمثالية حلم إذا اصطدم بالواقع تبدد وأضحى سراباً وهباء، والنظام الذي يقوم عليها نظام يبقى في حدود الخيال، ولا يؤدي رسالة في المجتمع، ولا يقوى على الاستمرار في دنيا الناس.^(٣)

(١) رواه البخاري (٢٦٥٠)، ومسلم (١٦٢٣).

(٢) مقالة الأستاذ أبي زهرة في كتاب "الإسلام اليوم وغداً" ص ٢٢٦.

(٣) ذكر الأستاذ الشيخ محمد عبده في رسالة "التوحيد" ص ١٦٨ أن المسيحية جاءت بالزهد البالغ وطرح الدنيا وطبائرها جملة، فلم تمض عليها بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم الشريفة عن احتماها.



والواقعية إن لم تصعد وتوجه وتهذب قادت إلى الارتكاس والانحراف.

وشريعة الإسلام هي الشريعة الوحيدة التي جمعت بين هذين الأمرين بشكل محكم رائع الأحكام.

لقد سائرت الفطرة الإنسانية ولم تقاومها، بل وجهتها في إطار الفضيلة والمثل الأعلى، ولعلّ ميزة الإسلام الأساسية أنه لا يغفل لحظة في أية خطوة وفي أي خطوة عن فطرة الإنسان وحدود طاقته، وواقع حياته المادي، وأنه يبلغ بهذا الإنسان إلى ما لم يبلغه أي منهج آخر من صنع البشر في يسر وراحة وطمأنينة.^(١)

ومن الأمثلة على ذلك موقف الإسلام من الغريزة الجنسية الذي ذكرناه قبل قليل، وموقفه من إباحة الملكية في حدود الإسلام الشرعية، وموقفه من إباحة الطيبات وتحريم الخبائث، وموقفه في الدفاع عن النفس وردّ العدوان.

وما أكثر النصوص التي تدلّ على يسر الإسلام. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

(١) "هذا الدين" صفحة ٤.



وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وإن القاعدة العظيمة التي قررها علماء الإسلام:
(الضرورات تبيح المحظورات)^(١) لتدلّ على يسر هذا الدين
دلالة تغني عن كل بيان.

٨- شريعة تحترم كرامة الإنسان وإرادته:

تحترم هذه الشريعة الكرامة الإنسانية في كل إنسان لا فرق في ذلك بين أبيض وأسود يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ومن أجل احترام الكرامة الإنسانية نهت هذه الشريعة عن المثلة في الحروب ولو كان الأعداء يمثلون بالقتلى. وقد نهى عليه السلام عن المثلة بوم أحد،^(٢) وقال لعمر عندما جاء يوم بدر يقول: دعني يا رسول الله أجدع ثنيتي سهيل يدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً. قال: لا أمثل فيمثل الله بي

(١) انظر شرح هذه القاعدة في "المدخل" للزرقا ٢/٩٨٩، وشرح "المجلة".

(٢) "تقريب السيرة" ص ٢٤٤.



وإن كنت نبياً. (١)

وقد احترمت إرادة الإنسان فجعلت الرضى أساساً لنشأة العقود، ومنعت الإكراه في التصرفات والأفعال منعاً مطلقاً، ولم ترتب على الأمور التي كانت بسبب الإكراه شيئاً: رفع عن أممي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه. (٢) وجعلت الإكراه في ذاته جريمة تستحق العقاب.

ولا فرق في حرية الإدارة بين الرجل والمرأة في النواحي المالية، وليس لأبيها ولا لزوجها أي ولاية مالية عليها، وليس لأحد أن يتصرف في مالها إلا بوكالة اختيارية منها، وبهذا سبقت الشريعة الإسلامية الشرائع الأوربية كلها. (٣)

يقول الدكتور علي عبد الواحد وافي في رسالة أصدرها سنة ١٩٥٩م بعنوان "الرد على الشيوعيين العراقيين":
[وهذه المنزلة من المساواة لم يصل بعد إلى مثلها أحدث القوانين في أعرق الأمم الديمقراطية الحديثة، فحالة المرأة في فرنسا لا تزال

(١) "نور اليقين" ص ١٢١.

(٢) حسنة النووي، وذكره في "الأربعين"، وانظر البحث فيه في "المقاصد الحسنة" للسخاوي ص ٢٢٨.

(٣) مقال أبي زهرة من كتاب "الإسلام اليوم وغداً" ص ٢٢٤.



إلى الوقت الحاضر أشبه شيء بحالة الرق المدني، فقد نزع منها القانون صفة الأهلية في كثير من الشؤون المدنية، كما تنص على ذلك المادة (٢١٧) من القانون المدني الفرنسي إذ تقرر:

(إنّ المرأة المتزوجة حتى لو كان زواجها قائماً على الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها، لا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها، ولا أن ترهن ولا أن تملك بعوض أو غير عوض، بدون اشتراك زوجها في العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية).

وهكذا نجد الإسلام قد احترم الإدارة الإنسانية، وذلك من تكريمه الإنسانية ذاتها.

٩- شريعة ثابتة مستقرة:

إنّ الثبات الذي تختص به هذه الشريعة ناتج عن أن أحكامها من الله، وليس للرسول ص فيها إلا النقل، ولا للعلماء إلا الفهم والتبويب، وما كان لمسلم قط أن يرى رأياً يخالف فيه ما ورد من نصوص الشريعة. وفي هذا الثبات مزايا عديدة، من أهمها:

أنها لا تتأثر أحكامها لفساد الناس والخلل الذي قد يقع في المجتمع، بل تبقى هذه الشريعة مهيمنة على الحياة، توجهها إلى الصراط السوي، وتعصمها من الانحدار والسقوط.



ومنها: أن ثبات أحكامها يجعل شيوع معرفتها بين الناس ميسراً، وتتحول هذه المعرفة إلى عرف شائع، وتقاليد ذاتية، وبذلك تصبح رعاية أحكامها أكثر وأدق.

وأود أن أشير إلى أنه لا تعارض بين الثبات هذا وبين المرونة التي ذكرناها قبل قليل، ذلكم أن المرونة - كما أشرنا - تكون في أمور سكتت عنها الشريعة، وأتاحت للمسلمين أن يحكموا عليها ضمن الخطوط الكبرى للشريعة ومقاصدها التي أرادت لها الثبوت والاستقرار.

١٠ - شريعة خالدة:

الخلود خاصة ملازمة لهذه الشريعة، وذلك لأمرين اثنين:

أولهما: لأن الله تعهد بحفظها وبقائها وخلودها ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وثانيهما: لما تمتاز به هذه الشريعة من خصائص ومزايا.

ولنسأل التاريخ كم مرة تنكر الدهر لدول الإسلام، وتسلبت الفجار على المسلمين فأثخنوا فيهم القتل، وأكروهوا أمماً منهم على الكفر، وأحرقوا الكتب، وهدموا المساجد، وصنعوا ما كان يكفي القليل منه لضياع هذا القرآن كلاً أو بعضاً، كما فعل بالكتب قبله،



لولا أنّ يد العناية تحرسه فبقي في وسط هذه المعامع رافعاً رايته وأعلامه، حافظاً آياته وأحكامه.

بل لنسأل صحف الأخبار اليومية كم من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، تنفق كلّ عام لمحو هذا القرآن وصدّ الناس عن الإسلام بالتضليل والبهتان والخداع والإغراء، ثم لا يظفر أهلها من وراء ذلك إلا بما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦]. ذلك بأنّ الذي يمسكه أن يزول هو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ذلك بأنّ الله ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٩].

والله بالغ أمره و متم نوره، فظهر وسيبقى ظاهراً لا يضره من خالفه حتى يأتي أمر الله. (١)

* * *

(١) "النبا العظيم" ص ٣٩-٤٠.



هذه أهم خصائص شريعة الإسلام.

وهي جديرة بأن يحرص عليها، وأن يعرض عليها بالنواجد،
وبأن تقدّم للمعذّبين في الأرض، ليجدوا فيها طلبتهم التي عزّ
مناها.

ولكن الغزو الاستعماري الحديث، الذي داهم ديارنا وبلادنا،
استهدف فيما استهدف القضاء على ديننا، لأنه يشكل قلعة حصينة
تصدّ عدوانه وتقف في طريقه.

وإنّ مما يوضح هذا المقصد الهدام هذا النشيد الإيطالي الذي
كان يردده الإيطاليون سنة ١٩١١م عندما غزت إيطاليا ليبيا
وطرابلس الغرب، وسأورد بعض المقاطع من هذا النشيد: ^(١)

إنّ من أعظم الآلام لشاب في العشرين من عمره أن لا يحارب في
سبيل وطنه مع دوام القتال في طرابلس، والراية المثلثة الألوان،
والموسيقى الحربية تنبهان النفس المقدامة.

يا أمّاه أتمّي صلاتك ولا تبكي، بل اضحكي وتأملي.

ألا تعلمين أنّ إيطاليا تدعوني، وأنا ذاهبٌ إلى طرابلس فرحاً

(١) ورد هذا النشيد في حاشية كتبها السيد محمد رشيد رضا تعليقاً على كلام
للأمير شكيب في كتابه "لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم" ص ٣١
الطبعة الأولى.



مسروراً، لأبذل دمي في سحق الأمة الملعونة، ولأحارب الديانة
الإسلامية. سأقاتل بكلّ قوتي لمحو القرآن.
ليس بأهل للمجد من لم يمت إيطالياً.
يا أمّاه .. أنا مسافر .. وإن لم أرجع فلا تبكي على ولدك .. وإن
سألك أحدٌ عن عدم حداثك عليّ فأجيبه:
إنه مات في محاربة الإسلام.
الطبل يقرع يا أمّاه .. أنا ذاهبٌ أيضاً.
ألا تسمعين هزج الحرب؟!
دعيني أعانقك وأذهب.

وكذلك فإنّ المقصد الاستعماري في القضاء على الإسلام
واضح من قول الجنرال غورو عندما دخل دمشق: الآن انتهت
الحروب الصليبية.

وهناك قول لغلادستون في مجلس العموم عندما أمسك بيده
القرآن وقال: ما دام هذا الكتاب بأيدي المسلمين فلن تستطيعوا أن
تحكموا في العالم.

وهناك مئات النصوص التي تدل على ذلك، تجدونها في كتاب
"التبشير والاستعمار"، وكتاب "المخططات الاستعمارية".

وما زال الاستعمار يدأب ويجد حتى استطاع أن يصل - مع



عميق الأسف - إلى أن يزعزع إيمان طبقة من أبناء المسلمين بالإسلام، وأن يستعبدتهم فكرياً .. وقد استغل هذا الاستعمار ضعف المسلمين وتأخرهم في الوقت الذي كان فيه - هو - قوياً متقدماً في الأمور المادية التجريبية، وكان من نتيجة ذلك أن نشأ جيل من أبناء المسلمين، يردد ببغاوية حمقاء كلام أعدائه، من ضرورة تنحية هذا التشريع عن حياتنا، وفصل الدين عن الدولة .. إلى آخر هذه المعزوفة الاستعمارية.

وكان النقص قد بدأ زمن الدولة العثمانية، بسبب ضغط الدول الاستعمارية نفسها على دولة الخلافة.

فأصدرت سنة ١٨٥٠م قانون التجارة نقلاً عن القانون الفرنسي، ثم في سنة ١٨٥٨م أصدرت قانون الأراضي نقلاً عن القانون الفرنسي.

ثم وضعت قانون الجزاء نقلاً عن القانون الفرنسي وأدخلت عليه تعديلات مأخوذة عن القانون الإيطالي.

ولم يبق في الدولة من التشريع الإسلامي إلا المجلة التي كانت تعنى بالنواحي المدنية وأحكام الأحوال الشخصية .. وظل هذا الأمر سارياً في البلاد التابعة للدولة العلية، باستثناء مصر التي رفضت حتى الأخذ بالمجلة بسبب عوامل سياسية.



وعندما نسف أتاتورك كل أثر للإسلام في الدولة العثمانية بقيت هذه البقية من تشريع الإسلام في البلاد التي كانت تابعة لها .. وجاءت الانقلابات العسكرية في سورية فألغت المجلة التي كانت تقنياً لأحوال المعاملات المدنية وفق المذهب الحنفي، ولم يبقَ لتشريع الإسلام العظيم إلا حقل الأحوال الشخصية التي لا تتجاوز شؤون الطلاق والزواج والإرث.

وهكذا استمر الخرق يتسع، والزاوية تنفرج، إلى أن أصبح المسلمون في معظم بقاع الأرض لا يستفيدون من هذا الكنز الثمين من التشريع، وبذلك حققوا لأعدائهم ما يريدون، من تعطيل أحكام الشريعة الله، والاحتكام إلى الطاغوت، مما أثر في حياة المسلمين تأثيراً كبيراً، إذ شاعت بينهم الرذيلة، واستهانوا بمحارم الله، وكرهوا الجهاد، وتكالبوا على حطام الدنيا وشهواتها، مما شجع أعداءهم عليهم، ولقد صدق فيهم قول الرسول الكريم ﷺ مخبراً بحالهم ومقررراً سبب ذلك قائلاً: إنه حبّ الدنيا وكرهية الموت. قال ﷺ:

«يوشك أن تداعى عليكم الأمم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها».

فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟



قال ﷺ: «بل إنكم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن».

قال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟

قال: «حبّ الدنيا وكرهية الموت»^(١).

إنها لكارثة أن يجرب المسلمون حجباً تاماً عن أحكام هذه الشريعة السمحة، التي فيها كل الخير لهم وللإنسانية.

ولقد كان من جراء ذلك أن نشأ جيلٌ قلق مضطرب، تكاد تخنقه العقد النفسية والحيرة القاتلة، ولقد مثل هذه الحيرة والقلق الشاعر المهجري إيليا أبو ماضي بقصيدة تصوّر لنا الضياع، والفراغ الهائل، الذي يعيشه الإنسان المعاصر، الذي لا يجد من حضارة العصر القائمة أجوبة لأسئلته العديدة والملحة.

يقول أبو ماضي:

جئتُ، لا أعلمُ من أين ؟ ولكني أتيت
ولقد أبصرتُ قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت

(١) ورواه أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد ٥/٢٧٨، والبيهقي في "دلائل النبوة"

٥٣٤/٦ عن ثوبان، وهو حديث صحيح.



كيف جئتُ ؟ كيف أبصرتُ طريقي ؟
لستُ أدري

أجديدٌ أم قديمٌ أنا في هذا الوجود ؟
هل أنا حرٌّ طليقٌ أم أسيرٌ في قيود ؟
هل أنا قائدٌ نفسي في حياتي أم مقود ؟
أتمنى أنني أدري ، ولكن
لستُ أدري

أوراء القبر بعد الموت بعثٌ ونشورٌ ؟
فحياةٌ فخلودٌ أم فناءٌ فدثورٌ ؟
أكلام الناس صدقٌ أم كلام الناس زور ؟
أصحيحٌ أن بعض الناس يدري ؟
لستُ أدري

كلما أيقنتُ أني قد أمطتُ الستر عني
وبلغتُ السرَّ سرِّي ، ضحكتُ نفسيَ مني
قد وجدتُ اليأس والحيرة لكن لم أجدني
فهل الجهلُ نعيمٌ أم جحيمٌ ؟
لستُ أدري



أنا لا أذكر شيئاً من حياتي الماضية
أنا لا أعرف شيئاً من حياتي الآتية
لي ذات غير أني لست أدري ما هيته؟
فمتى تعرف ذاتي كنه ذاتي؟
لستُ أدري

إنني جئتُ وأمضي، وأنا لا أعلم
أنا لغزٌ وزهابي كمجيئي طلسم
والذي أوجد هذا اللغز لغزٌ مبهم
لا تجادل .. ذو الحجى من قال: إني
لستُ أدري

وكذلك فإنّ مما يمثل هذا القلق الفكري، والضياع الكبير،
والفراغ الضخم، هذا الركام من الأغاني المائعة الماجنة التي
تصور هذا الواقع الأليم للحياة المعاصرة.

إنّ عدداً من مفكري الغرب يودون أن لو وجدوا سبيلاً إلى
علاج هذا القلق الشامل العميق، بعد أن أفقدت الحضارة الغربية
بفرعها الرأسمالي والشيوعي طمأنينة الإنسان واستقراره ومُثله
الإنسانية الرفيعة، وذلك عندما جعلت المادة مثله الأعلى، فإن لم



يصل إلى الرفاه المادي عاش شقيماً. وإن وصل إليه عاش ملولاً
يطارده جوع روحي، ولا ينتهي من ملله إلا بالانتحار.^(١)
هذا وإن بعض مفكري الغرب يشير إلى أن العلاج هو في
الدين.

يقول وليم جيمس وقد كان أستاذاً بجامعة هارفارد: إن أعظم
علاج للقلق ولا شك هو الإيمان.^(٢)
ويقول الدكتور بريل: إن المرء المتدين حقاً لا يعاني قط
مرضاً نفسياً.^(٣)

كم من الشقاء يجره المسلمون على أنفسهم عندما يبعدون
الدين عن حياتهم، ويأتون بحياة الغرب المضطربة القلقة
فيستعيرونها، ويدمرون كيانهم وذواتهم.
لقد تمزقت كل المقاييس التي كانت - في زعم الناس -
تصلح، في زمن ما، أساساً لتبني عليه الحياة، ومن هنا غدت
حاجة العصر الكبرى متمثلة في فكر سليم، يقوى على تفسير

(١) "من روائع حضارتنا" لمصطفى السباعي رحمته الله ص ١٠.

(٢) "دع القلق وابدأ الحياة" ص ٢٨٢.

(٣) "دع القلق وابدأ الحياة" ص ٢٨٦.



الكون ومظاهره، ويقدم نظرة متكاملة للحياة والإنسان، هذا مع اعتماد على العلم والموضوعية، في معالجة الشؤون الحيوية الأخرى، واحتكام إلى الاختصاص.

ذلك لأنّ كلّ نظام حضاري لا يقوم على أساس سليم من الفكر المتزن الموضوعي الشامل، نظام مخفق مقضي عليه بالدمار، مهما أوتي من وسائل الدعاية والإعلان.

وهكذا رأينا أيضاً أنّ الإسلام لا يهمل الحاجات التي يتطلّع إليها الإنسان المعاصر من الناحية الاقتصادية، وأود أن أشير إلى أمر مهم وهو أنّ مسaire كثير من قادة الفكر الإسلامي، وحملة الأقلام، للطوفان المادي الذي يغمر دنيا اليوم، تمثل حاجة مؤقتة لا يجوز أن تستمر، ولا أن تدخل جوراً على التناسق في كيان الإسلام، فإنّ من أروع المزايا التي تحدثنا عنها هو هذا التوازن بين جوانب الحياة.

لقد جاء الإسلام بنظرية اقتصادية قادرة على الوفاء بكل ما يتطلبه الإنسان المعاصر ولكنها في إطار الإسلام المتكامل، الذي تتعاون أجزاؤه وجوانبه على رسم الحياة الفاضلة.

ورأينا أيضاً أنّ في الإسلام تحقيقاً لحاجات ملحة من حاجات العصر، وهي حاجته إلى نظرية خلقية ترتفع به من



ذاك الفساد المروع المتردي الذي سقط فيه إنسان العصر، ولقد زادت أنواع الأنظمة التي سادت في تردي الأوضاع الخلقية وانتكاسها.

وأود أن أشير إلى أن عملنا بالتشريع الإسلامي لا يجرمنا من المنهج التجريبي، الذي أثمر عند الغربيين هذه الحضارة الضخمة الهائلة.

وكيف يتصور التعارض بينهما، والتحقيق العلمي الأخير يثبت أن أوروبا أخذت هذا المنهج عن المسلمين، وقد استطاع علماء المسلمين زمن يقظتهم ومجدهم أن يصلوا بسبب هذا المنهج إلى اكتشاف عدد من النظريات العلمية.

لقد كان الإسلام هو الذي أنشأ بطبيعة واقعية منهجه المنهج التجريبي، الذي انتقل إلى أوروبا من جامعات الأندلس، وقد قرر ذلك بريفولت و دوهرنج من الكتاب الغربيين أنفسهم.^(١)

إنَّ التشريع الإسلامي عندما يحكم الحياة - وهو ذو المنهج الواقعي التجريبي - لن يعتمد إلى المعامل والمصانع فيحطمها ..

(١) "المستقبل لهذا الدين" ص ١٠٤، و"هذا الدين" ص ٦٨-٧٢.



ولن يأتي إلى تلك التيسيرات التي تقدمها الصناعة للحياة البشرية فيلغيها ! لا .. ولكن الإسلام سيعمد ابتداء إلى تغيير النظرة إلى هذه الحضارة وقيمتها، سيمنحها قيمتها الحقيقية بلا مبالغة وبلا بخس كذلك، بحيث يكون الروح الإنساني المؤمن هو المسيطر عليها، لا أن تكون هي المسيطرة عليه وعلى تصورات ومشاعره وأوضاعه ونظمه.

إنَّ الإسلام سينقذ الروح الإنسانية من المهانة التي فرضها عليه دارون وفرويد وكارل ماركس وأشباههم، وعندئذٍ يستشعر أنه هو السيد الجدير بأن يسيطر على الآلة وعلى الإبداع المادي والحضارة.

وبعد؛ فإننا نحن المسلمين ما نزال في أول مرحلة النهضة والبناء، وهي فرصة نادرة قلّ أن تتكرر في حياة الأمم. فهل لنا أن نبنى حياتنا على أساسٍ من هذه الشريعة؟ لنفوز بالسعادة في حياتنا الدنيا، ولنحظى برضوان الله والجنة في الآخرة، ولنحمل إلى الإنسانية الخير والهناء.

وهنا تبرز مسؤولية العناصر التي تحتل مكانة القيادة الفكرية في العام الإسلامي .. إنها مسؤولية الدعوة إلى الإسلام .. وعرض مبادئه الخيرة السمحة بلغة العصر، وبكل



- ٦٠ -

مستحدثات العصر من وسائل الإعلام. إننا على مفترق الطرق، والمزالق خطيرة، والحرب ضدّ الإسلام شرسة، والمسؤولية كبيرة. وكأني بالدنيا التي تلتق نور الإسلام من هذه الجزيرة في يوم زاهر من أيامها، تتطلع اليوم - وقد أفلست كل مناهج البشر - إليكم كرة أخرى.

فهل منكم من يحمل الرسالة ؟ وينهض بذلك العبء الجليل ؟ ويحتل مكان القائد والأستاذ ؟
إني أرجو ذلك.

ألا فحيّ على الفلاح.

وصدق الله العظيم ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



الفهرس

٥	مقدمة
٧	التشريع الإسلامي وحاجتنا إليه
١٥	العقائد
٢١	الأخلاق
٢٣	الأحكام
٢٥	أهداف الشريعة
٢٦	خصائص التشريع الإسلامي
٢٦	شريعة ربانية
٣٠	شريعة مرنة
٣٢	شريعة شاملة
٣٣	شريعة جمعت الدقة والإحكام
٣٥	شريعة متوازنة
٢٦	شريعة ربانية
٣٧	شريعة عادلة
٤٢	شريعة واقعية ومثالية
٤٤	شريعة تحترم كرامة الإنسان
٤٦	شريعة ثابتة مستقرة
٤٧	شريعة خالدة
٦١	الفهرس



